خمسة حروف زرقاء

قصة بقلم يوسف ادورو

فتح الباب وقال باقتضاب :

ـ الساعة السابعة والنصف ، قم ، العمل ينتظرك .

فركت عينيّ . لم انظر اليه وانا أقول :

ـ صباح الخير . انتهيت الى قرار . استقلت من عملي منذ فترة . انا لا أحب المكتبات .

لم يغضب . لم يظهر على وجهه الطويل أي تعبير قاس . نظر اليّ لحظات ، ثم قال ببرود اعرفه جيدا :

ـ حاول ان تجد عملا جديدا . انا لا استطيع ان اصرف عليك طيلة الحياة .

أغلق باب الغرفة وذهب دون ان يسمع كلماتي ، فجرس العمل يلازمه . أبي يعمل مديرا لمدرسة ثانوية اسمها « الوحدة العلمية » . كان الضحك ينتقل الى وجهي وأنا أردد الاسم . أمي أجدها قصيرة وصغيرة . تخدم أبي بصمت ، وهو يتصرف كفارس من فرسان صلاح الدين الايوبي . انا لا اعرف ان كنت أعجميا ام عربيا .

تلجلج أبي وهو يقول لنا منذ ايام :

جاءت عائلتنا من قرية صغيرة بالجزيرة العربية ، واستقرت في قرية « صرفند » القريبة من يافا . تقلبت خلال الاجيال من الاسلام الى المسيحية ، ثم الى حظيرة الاسلام مرة اخرى .

التحمت عيناه الصغيرتان بوجهي وهو يتابع حديثه :

ـ وأنت الآن كافر ، تؤمن بأن الاديان ماتت ولن تعيش بعد اليوم.

لا أحب ان اناقش هذا الاب الذي تعدى الخمسين من عمره ، اصلع وقصير ، ويرتدي السراويل الطويلة جدا ، تجرجر على الارض ، وتمسح الحذاء . بدأ حياته كمعلم قرية . انتقلنا معه من مكان الى مكان . ولدت في « صرفند » ، فقد كانت عادته ان يرسل أمي الى قريته حين تضع له طفلا . لي أخت تصغرني بسنتين وتعمل مدرسة للغة الانكليزية . تتحدث بنعومة كأنها مفتعلة . تضع أساورا حديدية وخشبية حول شعرها ، تلفه وتهتم به ، وفي الصباح يظهر قصيرا ومجعدا كصوف خروف ضاع قرب الحدود الكويتية .

قالت أمي بصوت حنون :

ـ انهض ايها الكسول . الشاي جاهز .

تركت الفراش في العاشرة ، وبدأت أفكر بالايام ، تمتد وتتطاول، كأن الليل لن يأتي ، وحين يأتي ، فالليل طويل طويل . اليوم ، يوم السبت ، بداية ايام العمل . الصحيفة الصباحية تقبع فوق طاولة الطعام . فكرت ان اتجول عاريا في غرف البيت . امي ستصبح مجنونة . ستصرخ وتنفلت من البيت . لم أفكر في ان اعمل شيئا . لا أريد ان اتحدث مع أحد . قررت ان اصوم عن الكلام . الكلمات تنضب وتجف وقد تموت . الافكار قليلة ، والحياة تبدو مترفة وسخيفة .

استقلت من عملي . عملت كأمين مكتبة في متحف حربي . أخذت راتبا لمدة خمسة اعوام ، كنت اعطي امي خمسين ليرة كل شهر ، وأصرف الباقي على نفسي وعلى الاصدقاء ، يتخرجون من الجامعة ولا يجدون عملا . وجدت عملي بواسطة أبي . رئيسي في العمل ضابط بنجوم كثيرة وكرش مزهر .

قال حين جاء لتفقد المكتبة الصغيرة :

ـ ان الحياة قصيرة ، ونحن نحياها مرة واحدة فقط .

قلت له بتذمر واضح :

ومع هذا فالايام طويلة لمن لا يعمل ، وقصيرة جدا لمن يعمل .

اهتزت النجوم الذهبية فوق كتفيه ، وانتفض الكرش وهو يقول :

ـ ماذا تقصد ؟ أنت تسخر من النظام . مضت سنوات طويلة ولم نحارب . أيامنا طويلة فنحن لا نعمل ، هذا ما تقصده . انتم الشباب تنتقدون بمرارة . السنتكم سليطة دون فائدة .

قلت وأنا أبتسم :

ـ ولكنني لم أقصد شيئا .

ـ ها ، أنت تبتسم . أنت تسخر مني . سأكتب عنك تقريرا . هذا النظام من أشرف الانظمة . هل تنتمي لاي فصيل فدائي ؟ نحن نعرف كل شيء .

أحضرت المذياع الاسود الصغير ، ضغطت عليه ، الاغاني قصيرة وعذبة ، ذكرتني بحياة الناس حين كانت لهم حياة . أغنية حزينة باسم « فان غوخ » ، المغني يتلوى من الالم وهو يقول :

ـ الآن أعرف انا ، ما حاولت ان تقوله لي .

أعرف كيف قاسيت من أجل عذاباتك .

أعرف كم حاولت من اجل حرية الآخرين .

ألقيت نظرة ساهمة على وجه « فان غوخ » ثم قلت له :

ـ لن ينتهي الشقاء أيها الرفيق .

تذكرت ايامي الاولى هنا . كنت اذهب بملابس رقيقة لاحضر حليب الاعاشة ، وأحدق لساعات طويلة بالازهار الصفراء تغطي وجه الارض ، وأتمنى ، وتموت الامنيات امام عينيّ ، ويرتطم وجهي بموجات باردة . يصيبني خوف . أتذكر أمي وأختي والاصدقاء الصغار

والشوارع والازقة ، وأركض بخيالي عبر المسافات . لن أصل اليهم . احس دوما بانني على سفر . لا أعرف الى أين . الكلب ينبح في صدري ، والقطة تتوثب ، وصديقي فارس يسير بالقرب مني ، يحمل وعاء فارغا ، ويحلم مثلي بالهدايا القادمة من اوروبا واميركا . الصليب الاحمر وعدنا بالهدايا . فارس يرتدي سروالا قصيرا ، وقميصا من الكتان الرمادي ، والشتاء قاس كعيون قاسية . الايام راكدة وطويلة . البالونات الفارغة تنفجر أمام عيون الناس ، وتدور دبابات الانقلاب الابيض الجديد ، ثم تذاع البلاغات العسكرية المكتوبة جيدا . درست طويلا وحصلت على البكالوريا ، وشعر أبي يزداد انحسارا ، ويتساقط يوميا فوق الوسادة ، وفي حوض المغسلة ، وأختي يتكور الثدي فوق صدرها .

أنا الآن قفزت حواجز الثلاثين ، قضيت معظمها بهوية جديدة . اعرف « صرفند » بالاسم فقط . عشت حياة شتائية وصيفية . الربيع لم أعرفه ، والخريف يخاف مني . رأيت وجوها كثيرة ، وأحببت وجوها نسائية قليلة . كنت أنام فوقها وأتنفس بخشونة لاهبة ، وأحب التاريخ القديم . شغفت بالكلمات وخيل الي أنني كنت التقطها بحب . قرأت شعرا وقصصا وروايات .

فارس غادرنا الى بلاد اخرى ليعمل ، وكتب رسائل مفمسة بالشوق والحنين . عاد مرات عديدة ، لثمنا معا طرقات كنا نعرفها صغارا ، ابتسمنا في عيون الباعة وسعاة البريد ورجال المخيمات ، وكرعنا العرق الابيض الحليبي ، ثم غادر من جديد .

تذكرت فجأة :

ـ اليوم ، يوم السبت ، بداية العمل الاسبوعي ، وانا لا اعمل . اليوم ، يوم أزرق .

ارتديت بنطالي العريض . جلست فوق كرسي مريح في غرفة الجلوس ، وبدأت أمي تحضر الطعام ، وبدأت أقرأ :

ـ كوزو أوكاموتو يطلب من اسرائيل ان ينفذ حكم الاعدام بنفسه انتحارا .

تركت الصحيفة . فكرت بابطال التاريخ . الرجال الحقيقيون . تذكرت كلمات قالها فارس منذ سنين :

ـ الثورة هي ثورة واحدة في كل مكان .

تفرست في وجه « كوزو » ثم قلت له بحب مفعم :

ـ لا تظن ان الحياة تنتهي بالموت ايها الرفيق . الثورة بداية الحياة .

سمعت « كوزو » يقول :

ـ ومن أنت حتى تثرثرعن الثورة ؟

ـ آسف يا « كوزو » . ان عشت مثلي في الصمت ، ستتحدث مثلي . وضعت في مكتبة ، كنت أخاف ان اتنفس ، فالضباط يقرأون ويخططون . أريد ان انهض كشجرة تنبت في غابة بين اشجار متشابكة .

ـ اعمل . لا تتكلم كالعاطفيين .

المذياع الاسود الصغير يرسل لحنا كنافورة :

ـ أحببتك حزنا وفرحا .

أنا أقول مرحبا ، وأنت تقول وداعا .

تناولت الصحيفة مرة ثانية ، تسلل صوت أمي عبر المر :

ـ أختك ليلى ستحضر زميلتها شهرزاد لزيارتنا ، تريدك ان تبقى لتحدثها .

ـ أنا لا أؤمن بالزواج على هذه الطريقة .

سمعت ضحكات أمي الندية ، فابتسمت . قرأت من جديد :

ـ الثوار الايرلنديون يضربون من جديد في المنطقة المحرمة .

وتذكرت . الارض المحتلة ، الضفة الغربية ، غزة ، جنوب لبنان ، مرتفعات الجولان . فيتنام والسجناء في المانيا الغربية . محاكمات الرجال في ايران اعدام الشباب في تركيا . مباريات التنس العالمية . وجه فتاة اصبحت قديمة . عيون الناس المترقبة في شوارع صغيرة . انتخابات الرئاسة الاميركية . مطار اللد والرجال الثلاثة . وجه فارس يطل على العالم ويتحدث بشجاعة .

غلفني ندم مرعب . أعيش حياة سخيفة . كنت أنتمي الى حزب يساري تقليدي ، نتحدث ونثرثر ونخطط لتحرير العالم ، والرجال يغسلون عيون الارض . تذكرت « فان غوخ » من جديد . جاءتني كلماته كالينبوع :

ـ اني لا أكاد ادري ماذا انا فاعل ، لانني اعمل دوما كمن يسير وهو نائم .

مرة قلت هذه الكلمات لفارس ، أذكر انه اجاب بسخرية :

ـ ان منتهى البؤس هو الندم .

اليوم ، يوم السبت . السماء صافية وزرقاء . المذيع العربي يقول من لندن :

ـ نقدم لكم أخبار الظهيرة .

تحركت يدي . ضبطت ابرة المذياع . أريد صوتا واضحا . ألقيت الصحيفة وتأهبت للاستماع . رشفت دفعة جديدة من الشاي الاحمر الغامق .

قذف المذيع بالخبر الاول ، والسماء ما زالت صافية وزرقاء .

ـ قتل اليوم في بيروت فارس الفارس احد رجال المقاومة .

تلوى الاسم وتبعثرت حروفه عبر المسافات . انسلت العين اليمنى ، وتناثرت الاخرى يتيمة في مكان بعيد ، وانقذف الرأس كرمح عربي جاهلي ، لينبطح فوق ارض يابسة . تذكرت قميصه الكتان الرمادي ، حين أخذنا نمشي ذلك الصباح . تجمدت اصابعنا واخذنا نبكي كيتيمين . جاء الرجال وحملونا الى دكان صغير ، كانوا يشعلون النار في خشب يضعونه في علبة صفيح صدئة . قربونا من النار ، نظر الى وجهي وابتسم بدفء ، ثم أكملنا المشوار الى مركز الصليب الاحمر ، كنا نرتجف كحقل من سنابل القمح ، كنا نركض ونرتعش .

أذكر انه قال لي :

ـ لقد بدأنا المشوار وان نقف ابدا حتى نصل .

تركت غرفة الجلوس وذهبت الى المطبخ ، وقلت لامي بصوت ماتت رجولته :

ـ لقد قتل فارس الفارس اليوم .

توقفت الحركة في يديها لفترة قصيرة . نظرت الى وجهي . تبدو صغيرة وقصيرة ومنتحبة . البكاء يعلو ، وأنا أغادر البيت ، وأسير في الشوارع المليئة بالوجوه . السيارات سريعة وكثيرة ، والبنايات طويلة ونظيفة ، وأنا أحدث نفسي .

لقد قتلوك يا فارس . ماذا ؟ هل تتسابق الى الموت ، وهل نسارع الى ايجاد اليباس ، وهل نفلح أرض الملح ؟؟ نخاف ، آسف يا فارس ، أخاف ان انفلت مثلك ، وأخرج من غرف التقوقع ، وأنفتح على أرض خصبة .

كنت قد بدأت ، لو تعلم يا فارس ، عدة مشاريع للكتابة اليك ، كلها خبت أو خابت منذ المحاولة الاولى ، وفي خلال ذلك عطس الزمن وتأنق ، واهتز العالم بأحداث بشعة وحلوة ، ونجح الثوار في ايران وتركيا واليابان وأميركا السمراء ، ولهثت اميركا البيت الابيض وهي تتراجع امام الرجال في فيتنام ، وأهدر شاه ايران الملايين من الجنيهات الذهبية ، لاحياء ذكرى باهتة ، وانتزع ثلاثا من الجزر العربية ، وتململت حكومة قتية عربية ، وقبض على شاب ياباني في مطار اللد ، ووقف طابور من الفلسطينيين امام ابواب وكالة الغوث يتسولون ، ويتحدثون عن الاخبار ، ثم يضحكون كوجوه ملونة لبهلوان ، وتحدث نيكسون مع ماوتسي تونغ ، وعاد ليخوض الانتخابات ، وولد مليون طفل ، وأزهرت ألف فكرة ، وغضب يوفتشنكو الصهيوني الجديد ، وكتب قصيدة حب لعدو ، وتغيرت وجوه الرجال ، ومات كثير من الرجال ، والحرب ما زالت عندنا خامدة . الرجال لا يريدون ، يخافون ، يقولون ، يفتحون البخت في الفنجان ، وفي الرمل

والمندل ، ثم يذهبون لقراءة الصحف ، وينكحون زوجاتهم وعشيقاتهم وحتى أيديهم ، ولا شيء غير ذلك .

قتلوك يا فارس . مـــن قتلك يا فارس ؟ الارض لن تزهر لهم . أنت وأنا نعرف تماما ان وضعية السقوط التي نعوم فيها حكاية قديمة. أنت كنت تؤمن بسبيل للخلاص ، عرفت كيف تضع الخطوة الاولى .

مرة انتهيت الى قرار يا فارس . انت يا انت ماذا تفعل هنـــا ، وانت يا انت ماذا تفعل هناك ؟ الايام الماضية والقادمة محرقة ولعينـة كالمرض ، نعطيها عرقا فتأكله ، نلقمها دما فتاخـــذه دون ثمن . مرة انتهيت الى قرار يا فارس . ذهبت الى مقر قيادة الحزب ، فلـــت للرجل الجالس خلف الطاولة ، بصوت جدي وانق :

ـ أريد ان استقيل من هذا الحزب .

قال وهو يمسح بيده اليمنى على شعره الاسود الناعم :

ـ قرارك مخيف وسيغضب الرفاق .

قلت والكلمات تتواثب في عقلي :

ـ أمقت بطولات على الورق . أمقت الانا المطلقة . أمقت النـار التي تعطي نارا فقط . حكمنا او شاركنا في الحكم ، ولم نحقـــق شيئا . كذبنا ثم صدقنا كذبنا .

قال الرجل الجالس خلف الطاولة في مقر الحزب :

ـ كلامك غريب لا أفهمه .

ـ خطة الحزب كلمات وأنا لا أقبل الكلمات .

ناولني ورقة بيضاء ، كتبت فوقها استقالتي ، ثم قدمت له بطاقة الحزب ، وحين غادرت المقر ، شعرت بأنني أحيا الحرية من جديد .

انتهيت الى قرار يا فارس . آسف على التعبير . قررت ان التقي معكم ، على الرجال ان يلتقوا معكم . ها انك تضعني مرة اخرى في موقف دفاعي . لا شك ، ستقول من جديد ، انني ما أزال سادرا في البحث عن اسباب كثيرة لاقناع نفسي وخداعها .

مرة قال لي ابي بغضب :

ـ أنت لا تصلح الا للثرثرة . يجب ان تعرف ما هي المسؤولية .

ومرة قال رئيسي الضابط ، قبل ان استقيل :

ـ أنتم الشباب تنتقدون بمرارة . ألسنتكم سليطة دون فائدة .

ومرة يا فارس ، قلت لي :

ـ لا أعرف ما الذي تريده من حياتك ؟ بعد تفجر الثـــورة يجب ان تتوقف الاسئلة ، فقد وجد الجواب المقنع .

الناس يا فارس ما زالت تأكل وتشرب وتضحك . دور السينما ما زالت تعرض افلاما حربية فكاهية . اختي ليلى تأتي بصديقتهـا ، وتبتسم من بعيد وهي تقول :

ـ أقدم لك صديقتي شهرزاد .

أصبح شهريار العصر . أقوم بدور القاص ، احكي عن بطـــولات عنترة ، وسيف بن ذي يزن ، وغيفارا وهوشي منه وجياب ، وتتألـق العينان في وجه شهرزاد ، فانتفخ بطولة ، وأتخيل البيت ساحـــة حرب ، وأفكر في طريقة لاعض حلمة الثدي الناضجة . شهرزاد تتأوه ولا تنتفض ، وأتقدم كالفارس ، ثم أترجل ، وأسحب خنجرا مدببـا يلمع تحت ضوء القمر ، تحملق فيه ، تغمض عينيها وترتعش . آخـذ رأس الخنجر وأغرسه في اللحم الطري ، وتتساقط الازهار الحمراء ، ويتعرى الرجال وهم يغتسلون بمياه الانهار ، وتصبح شهرزاد سفينة بلا شراع . أمتطي حصاني ، أربطه بسيارة جيب سريعة ، وانطلـــق الى غابة .

مرة قالت لي شهرزاد بصوت مورق :

ـ أنت تخيف عينيّ .

قلت وأنا أنظر الى عينيها :

ـ وأنت تجعلين الخنجر يرتعش وينتفض ويود ان ينغرس .

تساءلت كالغبية المخترفة :

ـ ما هو الخنجر ؟ أين هو الخنجر ؟

ـ ما زال مغمدا . أريده ان يستعمل .

أراك تبتسم يا فارس . هذا ما حدث . شهريار ما زلت انا ، المتحدث الذي لا يتوقف ، وهي الصامتة التي تسمع ولا تفكر .

حين أراك يا فارس ، سوف أحدثك عن شعور العجز والفشل .

هل أخبرتك بقصة استقالتي ؟ لا تخف ، سأجعلهـــا قصيرة . تفلسفت مع الضابط دون قصد . أرهبني بتقرير طويل . سألني عن انتمائي الفدائي . الغبي لم يسأل عن انتمائي الحزبي . قال بأنـــه يعرف كل شيء . خفت . كتبت استقالتي .

ابي قال لي هذا الصباح بصوت بارد :

ـ حاول ان تجد عملا جديدا . انا لا استطيع ان اصرف عليك طيلة الحياة .

أنت تعرف يا فارس كيف يحصل الرجال على عمل . الواسطـــة والمسابقة . هل تذكر قصة المسابقة التي اشتركت فيها ، بعد حصولي على ليسانس الادب العربي ؟ كنا اكثر من اربعين خريجا ، وكـــانت القاعة كبيرة وخاوية ، ورؤوسنا معبأة بالمعلومات الطازجة . جـــاءت ورقة الاسئلة صفراء وذابلة ، قرأتها ، عرفتها . سؤال واحد أربكني . كان السؤال يقول :

ـ من هو عصفور بن عصفور بن حمام ؟

اذكر يا فارس ، انني ضحكت كالمجنون وكتبت :

ـ في الفترة التاريخية الحديثة ، ركب عصفور بن عصفور عربة الحكم . كان كبيرا وصغيرا ومحدود الخيال ، لم يستطـع الطيران ، حاول مرة فانكسر جناحه الايمن ، ثم حاول مرة ثانية فتقصف جنـاحه الايسر . جلس ليفكر ، تذكر تاريخه ، فوجد ان اجداده كانوا مـــن فصيلة الحمام . زرع هـذا الاكتشاف القوة في جناحيه ، فحـــاول مرة ثالثة ، فانهزم . ومنذ ذلك اليوم ، وهو يتحدث عن محـاولاته .

من يسمعه يتساءل ، هل حطمته المحاولة الثالثة أم هزمته فقط ؟

أنت تعرف يا فارس ، أنني حرمت من دخول أية مسابقة . انهم أغبياء .

اكتشفت بعد فترة ان عصفور بن عصفور بن حمام ، كان رجـلا عربيا يهتم بالنقد وبقواعد اللغة .

الشوارع زاهية ، والمحلات التجارية تعرض بضاعة وطنيـــة جـــديدة . يد تقبض على ذراعي ، التفت دون مباغتة . واقـــول لصاحب اليد :

ـ لقد قتلوا فارس الفارس .

ـ علمت بالخبر الآن ، الله يرحمه .

ـ قتلوه ولم يمت ، هل تعرف هذا ؟

ـ نعم أعرف ، أنت تهذي ، كنت تتحدث بصوت مسموع .

ـ والله أنت غبي ، وهل يتحدث الناس بصمت ؟

ـ أعني انك كنت تحدث نفسك بصوت مسموع .

ـ لقد قتلوا فارس الفارس . هل تعرف من قتله ؟ أنا اعرف .

ـ دعنا نذهب من هنا ، الناس لا تهتم ، أو تهتم ثم تنسى ، انا لست أهلا للحديث عن انتماءات فارس الفكرية ، كنت أخالفه الفكر ، ولكنني أحببته وأحبه .

ـ كان صادقا مع نفسه ومع الآخرين ، لم يهادن او يتساقط ، انتظر حتى تقرأ المراثي الرائعـــة ، سيذرفون اطنانا من الدمـــوع ، سينادونه بالفارس البركان ((آه من يرثي بركانا ؟)) ، ((أما كنت تحبني يوم كنت هناك ؟)) ، سيطبعون صورا ملونة له ، ويطلقون عليه لقب الفتى المتألق من فتيان هذا العصر ، المناضل الصادق الوفي ، وانت تعرف مفردات اللغة الغنية . يجب أن لا يرثيه احد ، فالموت بدايـــة الثورة . يجب ان يعرفوا من قتله .

ـ تعال ، فانت ما زلت تهذي .

أوقف سيارة اجرة وقال للسائق :

ـ منطقة القصور من فضلك .

تكومت في زاوية السيـــارة . لم أشعر بالغضب من كلمـــات زين العابدين . أذكر اننا انتسبنا للحزب معا ، أقرأ تعليقه اليـــومي على الاحداث ، وأهاجمه دوما .

فجأة قلت للسائق :

ـ لقد قتلوا فارس الفارس .

وبسرعة التفت الى زين العابدين وتابعت :

ـ لا تخف عليّ فأنا لا أهذي . أريد ان اعرف من قتله فقط .

لم يقل شيئا . قلت كأنني أهاجمه من جديد :

ـ هل ستكتب عنه في زاويتك اليومية ؟

لم أسمع جوابا ، ناولني سيجارة وطنية غليظة ، أخذتهـــا ، ومصصتها بشراهة . نفثت الدخان في وجهه ، لبسه خوف ، فتذكرت العصافير الجديدة ، ثم رأيتها تهاجر وتحترق بالصمت .

فتح باب شقته الصغيرة ، أعرفها جيدا ، تخيلت وجه أبـــي الصارم ، وشهرزاد تبحث عن الخنجر المسترخي . الشقة صغيـــرة وحمراء . جلست قرب المذياع ، وضغطت على زر من أزراره . انبعثت أغنية جريحة ، فتدفق الدم دون ثمن . زين العابدين أغلق المذيـاع ، فصمت الجرح .

قال دون ان ينظر اليّ :

ـ هل ترغب في شيء من الويسكي ؟

ـ ولم لا ، دعنا نحتفل بالقتل .

اتجه نحو المطبخ ليحضر حبات الثلج ، فجأة زعق الهاتف كأنـــه يصرخ ، سمعت صوت زين العابدين يقول بهدوء :

ـ آلو .

وبعد لحظات تابع :

ـ أهلا شهرزاد . انه هنا . دقيقة من فضلك .

جاء ليقول بصوت مألوف :

ـ شهرزاد تريد أن تتكلم معك .

ـ أخبرها بأنهم قتلوا فارس الفارس . لا أريد ان اتكلم معها .

اتجه نحو الهاتف مرة اخرى . انتهيت الى قرار جديد ، فتحت الباب كاللص ، وأصبحت في الشارع . الاولاد الصغار يلعبون فـــي الحارة ويصرخون ، امرأة تنشر ملابسها الداخلية وتحدث جارتهـا ، بائع يجر حماره ويصيح على بضاعته . السماء ما زالت صافيـة وزرقاء . بحثت عن سيارة أجرة . الباص سيكون مزدحما بالنـاس والدجاج . لا اريد ان ابتسم لاحد . سكان المنطقة من اليسوريـــن . زين العابدين يفكر في مقاله الاسبوعي ، وينتظر الانثى القادمـــة ، شقته معروفة .

شعرت بالجوع ، أشرت بيدي الى سيارة أجرة مسرعة . توقف السائق .

قلت : ـ اذهب الى مؤسسة اللاجئين من فضلك .

أدار بوز السيارة ، وانطلق . المذياع يغني .

قلت من جديد : ـ قتلوا فارس الفارس .

قال دون ان يلتفت : ـ لا اعرفه .

فكرت في ضربه على مؤخرة رأسه . الحمير كثر في هذه المدينة التي تعطي نفسها لكل عصفور . ما زالت بقيـــة من نقود في جيبي . لا أملك جواز سفر ، فجوازات السفر لمن لهم بلاد يعيشون فـــوق ترابهـــا .

قلت للموظف في شعبة الامن العام :

ـ أريد ان اسافر لاشترك في جنازة فارس الفارس .

تشاغل عني لفترة طويلة ، نظر الى أوراق مبعثرة فوق طاولة ، اشعل لنفسه لفافة تبغ ، وطلب فنجان قهوة بسكر وسط لصديـــق يزوره ، تصلبت امامه كشجرة الجوز ، وفكرت في الانظمة والقوانين وزيارات الاصدقاء خلال الدوام .

سمعته يقول لصديقه وهو يضحك :

ـ سهرة ليلة الامس كانت بهيجة ، يجب ان نكررها ، شكرا لك.

الصديق نظر اليّ ، ولم يقل شيئا . طرفت بيدي على طاولتـه وقلت بغضب :

ـ يا أخ اريد ان اسافر ، هذه هي وثيقة سفري .

ـ ولكن السفر ممنوع منذ سنين .

ـ ولماذا تمنعون السفر ؟؟

ـ لاننا في حالة حرب وطوارىء ، ولا نسمح الا في حـــالات استثنائيـة .

ـ هذه حالة استثنائية ، لقد قتلوا فارس الفارس .

ـ حتى اذا سمحنا لك بالسفر ، عليك ان تحضر تصريحا مـــن البلد المجاور لا يمانعون فيه بدخولك بلادهم .

قلت للموظف قبل ان اغادره :

ـ آسف لانني سألت ، السجن كبير وسيصغر ، هنـاك مليـون طريقة للسفر .

اصطدمت بجسد رجل من المسؤولين ، نظر اليّ يريد ان يشتم، وفغر وتطلعت الى عينيه . استحى أو خاف لا ادري ، وتركني ليذهب الى مكتبه .

كان المراجعون يسجلون أطفالا جددا في دفاترهم ويحمـــلون العشرات من الطوابع . الدولة ذلك الغني الذي لا يشبع . قلت لسائق سيارة اجرة جديدة :

ـ المخيم .

ابتسم لي وهو يقول بصوت حزين :

ـ الله يرحمه ، كنت أراه وهو يتحدث بجرأة ، أحببته وحزنت لموتـــه .

سألت وأنا أقرأ آية الكرسي المعلقة قرب مرآة السيارة :

ـ من ؟

أجاب كأنه يغفر غبائي :

ـ ولو يا رجل ، فارس الفارس .

وضعت يدي على كتفه . مذياع سيارته صامت لا يغني . الثورة تحرقها الانا ، والشعراء ما زالوا يلهثون ويتنرجسون ، والكتـــاب يتخذون القرارات ويتفننون بالحزن والبكاء وآثار الهزيمة . البغـاء يطفح على الجلد وفي الشوارع والبيوت ، ينكحون العقل ويقبـــلون العيون . أمي تطبخ وأختي تدرس وتأخذ رأيا تهدره على شعرهـــا المجعد القصير ، وصور القادة تتعلق في الساحات وعند الحلاقيـــن واللحامين ودكاكين البقالة ، ربحنا الحرب ، والحدود دون رجال . الدبابات تتقدم وتنسف وتحرق ثم تنسحب بهدوء . المذياع لا يتوقف عن الغناء والخطابة . الناس يعملون ، يأخذون نقودا ، ثم يدفعونهـا لمصلحة الضرائب والجيش لم يحارب . شرطي السير يعتلي المنصة ، ويقود السيارات كالقائد الطاووس .

تساءلت بصمت :

ـ هل أقود نفسي أم يقودني آخرون ؟

دخلت المخيم بعد ان صافحت السائق مودعا . المخيم مثل القرية الصغيرة . البيوت طينية وحجرية وخشبية . الرجال يقتعدون امـام دكان صغير ، والنساء يتحدثن عن اشياء كثيرة ، وصور الشهـــداء والملصقات تصبغ الجدران .

قلت للرجال وأنا أقتعد بجانبهم :

ـ السلام عليكم .

التفت ابو مرعي اليّ ، ومن على وجهه تزهر ابتسامة :

ـ أهلا بالاستاذ نجم ، خير ان شاء الله .

ـ خير ان شاء الله ، جئت لاتحدث مع مرعي .

وغابت عيونهم فوق سطوح المنازل الصغيرة ، وبدأ ابو مرعـــي

ينكش الارض بعصاه ، ويبحث عن كلمات . خفت من صمتهم ، خفت ان اسمع شيئا مرعبا عن مرعي . كان يعبر الارض المحتلة ، ويقوم بعمليات مع رفاقه ويعود . تفرغ للثورة منذ بدايتها ، ولم يسقط مثلما سقط آخرون . كنت آحترمه وأتمنى لو كنت مثله ، أزوره وأتحدث معه كلما أصابتني هزة من ضمير .

حمل صبي بشعر قصير ، كأسا من الشاي الاحمر الغامق ، رشفتها ، كانت حلوة مثل عود من القصب ، تململت فوق كرسي القش ، ولاحقت ذبابة زرقاء بيدي ، أخرجت علبة التبغ الوطنية وقدمت منها للرجال ، ثم اشعلت واحدة ، وقلت وانا أصوب عينيّ نحو وجه « ابو مرعي » :

ـ لقد قتلوا فارس الفارس ، وأريد ان اذهب لاشترك في الجنازة ، ولا استطيع الحصول على تصريح للسفر ، قد يدبر مرعي قضية سفري .

قال رجل من الرجال وهو ينفث دخان تبغه :

ـ كل صباح يموت وجه من الوجوه ، هذا المخيم فقد المئات .

قلت وانا ارتعش :

ـ هذا صحيح .

تابع كأنه لم يسمع كلماتي :

ـ ومع هذا فنحن لم نقدم شيئا بعد ، كأن الرجال يموتون بلا ثمن .

قلت : ـ هذا غير صحيح .

لم يسمع كلماتي ، أو كأنه لا يريد ان يسمع كلماتي ، فقد تابع حديثه وعيون الرجال مركزة على فمه :

ـ اسمع يا استاذ نجم . حين كنا بفلسطين ، اشترك كل الناس بثورة الـ ٣٦ . من يعمل للثورة الآن ؟ عددهم قليل . انت يا استاذ نجم ، لماذا لم تشترك بالعمل حتى الآن ؟ تريد ان تحيا في المدينة ، وتلبس على آخر طراز . مثلك كثير . وهناك من يتباهى ويتظاهر وكأنه يقول للناس « تعالوا شوفوني ، أنا فدائي » .

فجأة غبت عن المكان ، تذكرت وجه شاه ايران ونيكسون وعين دايان ، ورأيت وجه كوزو اوكاموتو وهو يرش العالم والجدران والعيون الجشعة بالرصاص . عدت الى نفسي . وجدت منذ سنين عتيقة قديمة . لم تسر فوق صفحة وجهي تجربة حقيقية . الشعارات كانت حياتي . عيناي تجولان في الابعاد ثم تنتحر . أنا ، لماذا لم اشترك انا مع الآخرين ؟ من انا ؟ أعانق الاشجار والجبال والمياه والرياح والمطر ، وأحلم بالايام البهيجة القادمة . انا اثرثر واتفلسف واسير في الشوارع واتحدث عن الخنجر المغمد وشهرزاد صامتة غبية . فارس الفارس مات ، لا ، انه لم يمت . الرجال قتلوا وما زالوا يقتلون . فان غوخ مات حزينا . الاشجار باسقة وسوداء ، والصبي بشعره القصير يحمل كأسا من الشاي الاحمر الغامق ، أرشفها ، طعمها مر كالعلقم . أمي تطبخ ، المذياع يغني ، الوجوه تضحك وتتألق والحدود بلا رجال او حتى أسلاك شائكة . كأنني عرفت التاريخ هذا الصباح . التاريخ اسود وشعره كثيف ، عيناه عميقتان محفورتان في داخل جمجمة . انا كنت مسطحا وحلزونيا رفيعا ، لم آر عينين في قمة رأسي .

اليوم ، هو اليوم الاول ، الموت جاء والحياة دبت لتعيش .

سمعت صوت مرعي يقول مرحبا :

ـ أهلا بنجم .

تطلعت اليه ، الحياة تعيش فيه . ابتسمت وقدمت له لفافة تبغ . استأذنت من الرجال ، وسرت برفقة مرعي . وقلت بصوت جاء عميقا وجديدا :

ـ انت تعرف ان فارس الفارس قد قتل اليوم ، اريد ان اذهب معكم لاشترك في الجنازة . انت تعرف ما أقصد بهذا ، فانا لا أملك تصريحا للسفر . قد ابقى هناك ، آسف ، سأبقى هناك . أشعر بأن هذا اليوم هو اليوم الاول في حياة نجم ابن ناظر مدرسة « الوحدة العلمية » .

ـ سوف نتحرك بعد ثلاث ساعات . استعد .

ـ انتهيت الى قرار يا مرعي ، سوف آلتقي معكم .

ـ سنتحدث بهذا بعد الجنازة .

ـ انا أعد يا مرعي .

ـ لا تعد ، سنتحدث بهذا .

ـ سأراكم قرب شجرة الجوز القريبة من بيتنا .

عاد الى المخيم ، وسرت أخترق الشوارع والطرقات نحو بيتنا . شاهدت حيوانا أزرق بأسنان عديدة ، ابتسم في وجهي وقال :

ـ جئتك مصافحا ومعانقا . انا أستل الاوجاع والحزن والسام .

اقتربت منه ، ومن عينيّ تخرج نافورتان عذبتان ، تساءلت وأنا أقول :

ـ أعطيك حزني ، أعطني شمسا . أعطيك أوجاعي ، أعطني حبا صافيا كدمعة طفل . أعطيك عمري ان قلت لي ما اسمك .

تكسرت اسنان عديدة وتدحرجت ، اقترب مني . كانت زرقته صافية كسماء ربيعية . تذكرت قلبا اخضر غرق في بحار داكنة .

ابتسم وهو يزداد حلاوة ثم قال :

ـ اسمي خمسة حروف ، كل حرف تخرج منه نجمة ، ولكل نجمة بريق والوان كقوس قزح ، كلما ازددت اقترابا منها ، كلما أردت الكثير . اذا اجتمعت نجومي ، تضخمت قوتي . انا طمع رهيب ، أتسكع في الحروب وأتفرج في المجاعات ، وألازم الامراض أينما حلت . انا انجو دوما . العالم عرف اسرار الكون ولم يعرف سري .

اقتربت ، ازداد قربا ، النجوم تفتحت ، السماء حمراء ، السفن غرقت واغصان الاشجار تهتز . الاحرف تجمعت في عيني .

انا اعرفه الآن . سمعت دويا كالانفجار ، ثم همسا عذبا :

ـ هل عرفتني ؟ تسمونني الموت ، وانا أطلق على نفسي لقب المنقذ .

يوسف شرورو

صدر في الاسواق

روائع طاغور

في الشعر والمسرح

تضم مجموعاته الشعرية والمسرحية الكاملة :
جيتنجالي ـ جني الثمار ـ البستاني
الهلال ـ دورة الربيع ـ شيترا
ـ في حلة مجلدة انيقة ـ

نقلها إلى العربية
الدكتور بديع حقي

تطلب من دار العلم للملايين والمكتبات
بيروت الثمن ٧،٥٠ ل.ل